الصحافة والحكومة

خطبة للستر كولدج رئيس الولايات المتحدة

كانت العلاقة بين الصحافة والحكومة ولا تزال موضوعاً كبير الشأن. فاول ما تسعى اليه الحكومة في بلاد ذاعت فيها اساليب الاستبداد هو السيطرة على مصادر الاخبار العامة. واسمى ما تتصف به البلاد التي تملي مقام الحرية هو اطلاق الصحافة من القيود التي تثقل كاهلها

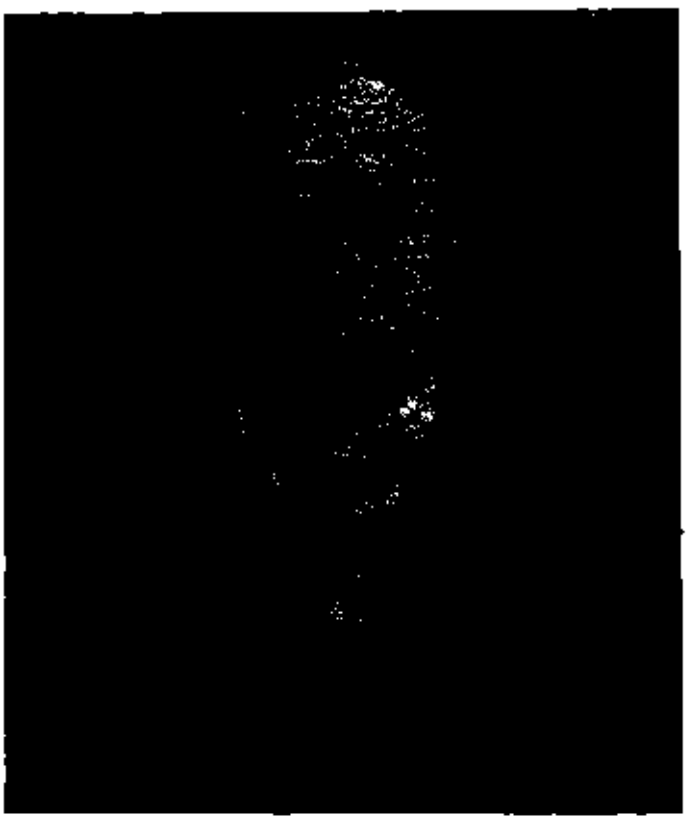

المستر كولدج رقي الى منصب الرآسة في الولايات المتحدة بعد موت سلفه المستر هاردنغ في ٢ اغسطس ١٩٢٣ ثم انتخب رئيساً اصلاً في ٤ نوفمبر ١٩٢٤ واحتفل بتنصيبه في وشنطون في ٤ مارس الماضي

لقد عرف الناس منذ زمن بعيد آنفا بالفطرة وآنفا بالاختبار ان الحق والحرية لا ينفصلان. فالحكومات الاستبدادية لا تستطيع ان تقوم على شيء سوى على رأي مخطىء ضالّ في علاقة الناس بعضهم ببعض وعلى مبادئ كاذبة توضع بالقوة وتذاع بها. هذه الحكومات وجدت ان لا بدّ لها من السيطرة على نظام التعليم العام والتحكم به لانها لا تنهض الاّ على الجهل. واذا سعت لتنوير العقول فانما

تنور عقول فئة قليلة من ابنائها لكي تخدمهم في تضليل الجماهير . فالذين تعلموا في رعاية هذه الحكومات لم يتعلموا ليشهدوا للحق بل ليكونوا محامين اشداء عن مبادئ كاذبة وادّعاءات باطلة . هذا هو السبيل الذي سلكه دعاة الامتياز الخاص . هذا هو سبيل تقسيم الناس الى طبقات، سبيل السيد والمسود

ومتى بلغت امة شأوًا بعيداً من الارتقاء فبدأت حكومتها تتخذ شكلاً جمهورياً تصير وسائل التعليم اكبر شأنًا مما كانت وتنقلب الحال عمّا كانت قبلاً لان نظام الحكومات الحرة يستلزم ان يكون جميع الناس متنورين ومطلعين على الحقائق كما يلزم ان يكونوا اغنياء في ظل الحكومات المستبدة

لذلك نرى الحكومة في البلدان الجمهورية لا تسيطر على معاهد التعليم ولو قيدتها بقيود القانون الاساسي . والمبادئ التي تلقّن في هذه المعاهد لا تعتمد في صدقها وتأثيرها على اتفاقها مع آراء الاسرة المالكة او مخالفتها لها بل على موافقتها للحق . والصحافة التي تكون في رعاية الحكومات المستبدة آلةً لقلب الحقائق وتشويهها تصبح في البلدان الحرة اداة لاذاعة هذه الحقائق وتوضيحها . فتصير المنشورات العامة حينئذٍ من رتبة بوق ينفخ فيه الحاكم حين يشاء وما يشاء مقيدة به بقيد الخضوع والامتثال و يصير لها مقام محترم مبني على الاستقلال وتصبح عاملاً كبيراً في تعليم الناس وتنوير اذهانهم وتغدو قوة كبيرة من قوى العمران وتلقى عليها تبعة تتناسب مع مقامها ونفوذها

فالصحافة التي تسيطر عليها حكومة مستبدة لا تكون الاّ وسيلة للبروبغندة (الدعوة) لكنها في ظل الحكومات الحرة تكون عكس ذلك . ان البروبغندة تسعى لنشر جانب من الحقائق فقط وتشوّه علاقة هذه الحقائق بعضها ببعض فتنتج نتائج ما كانت استنتاجها ممكناً لو نشرت كل الحقائق بصراحة تامة . لذلك قيل ان البروبغندة تعمي الذهن والتعليم ينيرهُ وفيها خطر من اكبر الاخطار التي تهدد عمراننا الحاضر

على ان هنالك صعوبة كبيرة في مقاومة البروبغندة الضارة او في ادراك حقيقتها واجتنابها، تنجم عن كثرة المشاكل الفنية التي تواجهنا ويصعب على اي كان ان يحيط بها علماً من جميع وجوهها . ومن هذا القبيل تواجهون — يا رجال الصحافة — ما يواجههُ المشترعون ورجال الحكومة من المصاعب . فعلى كل المشتغلين بالامور العامة ان يعتمدوا على معارف الخبيرين والاختصاصيين واحكامهم

ومما يؤسف له ان ليس كل الخبيرين مجردين لتأييد الحق حتى يصح الاعتماد على ارائهم

وما كلّ المختصين صادق فيما يقول. فزيادة اعتمادنا على اراء الخبراء في امورنا المهمة تجعلنا اقرب لتأثر باضاليل البروبنده التي تأتينا مخفية في رأي خبير او حكم مختص ولذلك يجب علينا ان نكون رحيبي الصدر ننظر في كل ما يُعرَض علينا من غير تشيّع او تعصب

كل جيل من الناس يعتقد ان المشاكل التي تواجههُ ادق المشاكل التي عُرفت واصعبها . ومع اعترافي بما فينا من الميل للمبالغة في وصف مشاكلالام في هذا العصر اقول ان مشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية ادق واكثر تعقداً واعسر على الحلّ من المشاكل التي عُرفت في العصور المتقدمة . لذلك يجب ان نبقي عقولنا حرة من قيود التشيع والتحزب . ولنعلم ان التعليم لا يضيرنا مهما عظم نصيبنا منهُ . واما البروبنده فخطر كبير مهما كان نصيبنا منها قليلاً

لذلك يبقى رجال الصحافة بالمناقشة في ماهية الاخبار التي تعتمد عليها الصحف وتذيعها وعندي ان هذه المناقشة ستدوم ما دامت الصحف. على اني ارى ان الصحيفة لا تستطيع ان تنشر أخبار الشعب من جميع وجوهها مع مراعاة التفصيل والاسهاب والدقة كما لو كانت تصور حادثة من الحوادث بالفوتغراف . لان هذا عمل مستحيل بطبعهِ . بل تكون على جانب الانصاف اذا طلبنا الى الصحف ان تكون نسبة الاخبار التي تنشر فيها الى ما يقع من الحوادث كنسبة صورة انسان مصورة بالزيت الى صورتهِ الفوتغرافية . فالصورة الفوتغرافية تريك تقاسيم جسمهِ جلية ولكنك لا ترى فيها خلقهُ وشخصيتهُ

كان احد اساتذتي يقول انهُ اذا كانت صورة شجرة بالقلم تأتي مثل الشجرة تماماً فلا فائدة من الصورة لاننا نستطيع الذهاب الى الغاب لرؤية الشجرة نفسها . ولكن اذا كانت الصورة من الطبقة العالية بين الصور وجدنا فيها ما لا نجدهُ في الشجرة او في صورتها الفوتغرافية وجدنا فيها شيئاً من الخلق والشخصية التي تختلج في نفس مصوّرها فينصرف نظرنا حين رؤيتها عن النظر الى الاشواك وغيرها من التفاصيل الى التأمل في روعة تلك الدوحة وجمالها

لذلك خطر لي ان الاخبار يجب ان تروى على اسلوب يظهر فيهِ مثال واضح من معيشة الناس وحوادثهم اليومية . يجب ان ترسم فيها اخلاقهم وعاداتهم ونزعاتهم . فيستطيع المخبر او المكاتب حينئذٍ ان يظهر ما فيهِ من مقدرة ونبوغ . فلا يروي الحوادث التي يراها في مقالات لا رواء فيها ولا طلاوة بل ينظم منها ما يفيد و ينير ويطرب فيخرج العمل عن حدود التقليد ويسمو بهِ الى مرتبة الفنون

اما صحفنا الاميركية فلها غايتان الاولى اذاعة المعارف والاخبار بين قرائها. والثانية خدمة مصالحنا التجارية عن طريق اعلاناتها وانبائها المالية والتجارية

وارجح انكم لا تحترمون قاعدة في عملكم اكثر من احترامكم للقاعدة القاضية بفصل مصالح الصحيفة المالية عن ادارة انشائها وتحريرها. فامور الصحيفة المالية يجب الاَّ تؤثر في سياستها العامة وما تذيعهُ من الاخبار. كذلك يجب ان لا تغيِّر السياسة المالية في صحيفة من الصحف بحسب التغير الذي يقع في موقفها ازاء الامور العامة

ان الغريب عنا يرى ان هذه القاعدة تؤدي الى ارتباك عظيم في التوفيق بين فروع الادارة والتحرير ولكن لزوم هذا التوفيق على ما اظن ليس في الصحف اشد منهُ في كل عمل من اعمالنا. والحياة كلها ليست سوى سلسلة طويلة من التوازن والتوافق

حينما افكر في العلاقة بين سياسة الجريدة المالية وموقفها ازاء المسائل العامة يثبت لي ان الصحف الاميركية تمثل ما في بلادنا من السعي الى الكمالات العملية. فمن مدة قصيرة وضع قانون يتعلق بدخل الاشخاص والشركات فنشرت بسببهِ حقائق مشوقة عن هذا الدخل. نشرت الصحف هذه الحقائق في اعمدة الاخبار فيها واحتج كثير منها في المقالات الرئيسية على الحكومة لانها سهلت السبيل الى اذاعتها ولم يكن في عملها هذا شيءٌ من التناقض. ذكرتُ هذه الحادثة لامثِّل بها على ما قلتهُ هنا من ان صحافتنا تمثل ما في بلادنا من سعي نحو الكمالات العملية. فمحررو الجرائد اذاعوا الحقائق حالما اتصلت بهم لانهم عمليّون يغتنمون الفرص ولكنهم ككتَّابٍ يطلبون تحسين الاحوال والسعي نحو الكمال لاموا الحكومة على تسهيل اذاعتها

***

يداخل بعض الناس خوفٌ من صيرورة صحافتنا عملاً تجاريًّا ويقولون ان الصحف الكبيرة صارت مشاريع مالية تربح ارباحًا طائلة ويسيطر عليها نفر من المتمولين. ويخافون ان هذه السيطرة تؤدي بالصحافة الى تأييد المصالح الخاصة بدلاً من تأييد المصالح العامة

على اني ارى ان الحكم الذي نستطيع ان نحتكم بهِ صحيفة من الصحف ليس بالنظر الى من هم اصحابها وهل هم من الاغنياء بل يجب ان ننظر الى درجة اخلاصها في تأييد المصلحة العامة. يجب ان لا يهمنا من هم اصحاب الجريدة اذا رأينا ان موقفها ازاء المسائل العامة غايتهُ الفائدة العامة. والصحافة التي يحملها على العمل باعث السعي لتأييد النفع العام لا يضيرها غناها مهما عظم ما زالت قوتها تستخدم لتأييد حكومة الشعب

اني لا ارى سبباً للقلق في العلاقة المزدوجة بين الصحف والشعب — اي في ان تكون الصحف من الجهة الواحدة العامة وسيلة لاذاعة الاخبار والحقائق ومن الجهة الثانية الخاصة عملاً ماليًّا رابحاً . بل اعتقد ان صحيفة تبقى على اتصال تام باحوال الامة التجارية اكبر فائدةً واجدر بالثقة منها اذا كانت على غير علم بها

ان عمل الشعب الاميركي هو العمل . فهو يهتم بالانتاج والبيع والشراء وتثمير الاموال وزيادة الرخاء والرفاهة في المكونة . واني واطيد الثقة بان السواد الاعظم من الناس يجد في هذه الامور اقوى العوامل على الدأب والعمل في الحياة . وقد جاء الشاعر غولد سمث بنقيض هذا الرأي في شعر يرويه كثيرون ولكن قلَّ من يعتقد صحتهُ . قال ماترجمتهُ

«ان البلاد التي تزيد فيها الثروة وينقص الرجال سائرة الى الاضمحلال »

شعر بليغ ! ولكنهُ ليس فلسفة يصح العمل بها . كان قول غولد سمث يصح لو ان جمع الثروة ينقص الرجال . ولكن انحطاط الرجال الذين جمعوا اموالاً طائلة اندر من النادر . بل الانحطاط يبدأ حينما يكفون عن الانتاج وجمع الثروة . فالثروة نتيجة العمل والاجتهاد وحسن الاخلاق والسعي الذي لا يلل . وكلنا نعلم ان الاثراء يؤدي الى زيادة المدارس ونشر المعارف وارتقاء العلوم وتشجيع البحث العلمي وتوسيع المدارك وزيادة السعة وانتشار العمران

نعم اننا لا نستطيع ان نبرر جمع المال كغاية الوجود . ولكن علينا ان نعترف بان المال وسيلة الى كل عمل عظيم . فما زلنا نرى المال وسيلة لا غاية وجب علينا ان لا يخيفنا حشدهُ . وهل من عصر غالى في حسبان المال وسيلة اكثر مما نغالي نحن في حسبانهِ كذلك؟

منذ مدة قصيرة قرأنا في صحفكم ان رجلين من اكبر رجال الاعمال والاموال في اميركا وهبا نحواً من ٦٠ مليون ريال للتعليم . هذا خير مهم ! وهو عمل ينطبق على ما نعرفهُ عن كبار تجارنا واغنيائنا . انهم يتوصلون بقوتهم وتفوذهم وثروتهم ليتنعموا ليتنفعوا الامة لا نفوسهم ولا امرهم . واني على ثقة ان الاجيال القادمة التي تستفيد بنتائج هذه الهبات لا يسهل اقناعها ان جمع المال كان ضاراً

لذلك ارى ان لا خوف على صحفنا لانها صارت اعمالاً مالية ناجحة . ولكن هذا النجاح يستدعي مضاعفة السعي لاجتناب الظهور بمظهر الاتانية . ففي كل حرفة نجد اقلية تعتمد على الخلق السافل . والامم ان تخلو من اناس يرون مصلحتهم في خيانة غيرهم ولكن هؤلاء يقلون رويداً رويداً وتفوذهم يضعف واثرهم مهما ظهر عظيمًا في سنين من الاحيان

ليس سوى اثر زائل . انهم لا يستطيعون ان يعيقوا تقدم الشعب الذي عزم ان يتقدم ويرقي . قد يعيقون تقدمهُ في بعض الاحايين ولكن سعيهم لا بدَّ من زواله واثارهم ليست ببافية لان الناس لا يسيرون في الجبة التي يسير اولئك فيها وقوة الروح تتغلب على قوى الجسد دائماً

امثال هؤلاء الناس بين الصحافيين لا يبرزون تقييدنا لحرية الصحافة لان كل حرية وان تطرفت في بعض الاحيان فيها علاج يشفي ادواءها

لذلك ارى ان صحفنا الاميركية تمثل ما في شعبنا من سعي الى الكمالات العملية . وانا واثق بانها افضل الصحف في المسكونة . فانها تنشر من الاخبار الصادقة الموثوق بها اكثر مما ينشرهُ غيرها واعتقد انها في مقالاتها الرئيسية اقل من غيرها تأثراً بتأثير خارجي او رأي حزبي او مصلحة خاصة

وزد على ذلك اعتقد ان الصحف الاميركية اكثر استقلالاً واقل تحزباً الآن مما كانت في اي زمن سابق في تاريخها . ولذلك يصح الاعتماد عليها اكثر مما كان يصح الاعتماد عليها من قبل . هذا رأيي في رجال صحافتنا وفي رجال ادارتنا ايضاً . كلنا الفئتين اتقى صفحة واقل تشيعاً الآن منهم في اي زمن سابق . ومن يخالفني في هذا الحكم يدل على جهله لكثير مما حدث حتى في حداثة الكثيرين منا

لا شك ان المصلحة الخاصة ستعنى عناية كبيرة بالوجهة المالية من الصحافة وفي ذلك لا يحتاج اصحاب الصحف الى تشجيع وتأييد من الخارج

لكن ليس هذا الامر الوحيد الذي يقبل عليهِ الشعب الاميركي . ومن يحسب اننا شعب لا تشغلهُ سوى العناية بالماديات لا يدرك اسرار حياتنا القومية . لا نخفي اننا نطلب الثروة ولكن هنالك اموراً اخرى نطلبها اكثر مما نطلب الثروة . نطلب السلم والشرف وحسن السمعة الذي نراهُ ركناً متيناً من اركان الحضارة

ان المثل الاعلى الذي ينشدهُ الاميركيون هو السعي نحو الكمال . وانني لا اني من القول بان اميركا بلاد شعب يحب الكمال ، والفلسفة الكمالية هي العامل الوحيد الذي يعيرهُ الاميركيون انتباهاً دائماً . وما من جريدة تستطيع النجاح في هذه البلاد اذا لم تنقر على هذا الوتر الحساس في حياتنا القومية . ومن هذا القبيل تستطيع الصحافة ان تؤيد الحكومة . انا لا احط من قيمة الفرع المالي في ادارة الجريدة حين اصرّح ان ثقتي كلها في فرع الكتّاب الذين ينشئون المقالات الرئيسية